الدين في كتابات المستشرقين

الإسلام نموذجا

– مقاربة أنتروبولوجية –

الدكتور عبد الباقي غفور

جامعة تلمسان

الملخص:

إنَ العقيدة في الدَين الإسلامي هي جوهر الحضارة، بما يرتبط بها من قيم و أخلاق. و هي التي تجعل المجتمع الإسلامي أعلى جيل حضاري في تاريخ البشرية كلَه، على الرَغم من البساطة المتناهية. و لقد أدرك المستشرقون أنَ سر قوَة المسلمين هو دينهم– الإسلام– و من هنا عملوا على تشكيل مجتمع الشرق من خـلال إسـقـاط غـربي، و ذلك بطمس هويته الإسلامية و تمييع شخصية المسلمين الفذَة، و جعلهم ينحرفون انحرافا شديدا عن حقيقة الإسلام، لا في السلوك وحده و لكن في التصوَر كذلك، مستندين في ذلك على ما يعرف بالغزو الفكري.

الكلمات المفتاحية: العقيدة، الحضارة، الغزو الفكري، المستشرقين.

Résumé :

La doctrine de la religion Islamique avec ses valeurs et son éthique, ont fait de la communauté islamique la plus civilisée dans l'histoire de l'humanité, malgré sa simplicité absolue. Les orientalistes ont réalisés que le secret du pouvoir des musulmans est leur religion – l'Islam – et pour les dévier de la réalité de l'Islam, il faut se baser sur ce qu'on appelle l'invasion intellectuelle.

Mots clés : Doctrine, civilisation, Invasion culturelle, Orientaliste.

الإسلام نموذجا

– مقاربة أنتروبولوجية –

الدكتور عبد الباقي غفور

جامعة تلمسان

إنَ الارتباط بين العقيدة و مقتضياتها الأخلاقية هو القيمة الحضارية الجوهرية في الدين الإسلامي التي تجعل المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضَر، مهما يكن نصيبه ضئيلا من العمارة المادية للأرض، و تجعل العقيدة في هذا الدَين هي جوهر الحضارة، بما يشعَ منها و يرتبط بها من قيم و أخلاق. و بهذا المعيار كان الجيل المتفرَد من جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أعلى جيل حضاري في تاريخ البشرية كلَه، على الرَغم من البساطة المتناهية في الأشكال المادية و التنظيمية التي كانت في متناول يديه، لأنَه كان يمارس– في عالم الواقع– أعلى قيم إنسانية و أخلاقية عرفتها البشرية. و لقد تفطَن لهذه الحقيقة أهل النَظر و التَمييز من الغرب. إذ من خلال المد الإسلامي اختلط المسلمون و علماؤهم بعلماء الغرب و مفكَريه، و من خلال دراسة هؤلاء لديننا العظيم، أدركوا أنَ عزَتنا و منعتنا و قوَتنا نابعة من تمسَكنا بتعاليم ديننا الحنيف، و بقرآننا المجيد الذي فظه العلي القدير من العبث و التَحريف.

فمن ذلك ما روى **ابن كثير** أنَ هرقل لما انتهى إلى خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام: " ويحكم إنَ هؤلاء أهل دين جديد، و أنَهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني و صالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام، و يبقى لكم جبال الروم، و إن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام و ضيَقوا عليكم جبال الروم." (1)

و يقول المؤرّخ **هـ.ا.ل فيشر**، في كتابه "**تاريخ أوروبا**":" لم يكن هناك في جزيرة العرب قبل الإسلام أثر لحكومة عربية، أو جيش منتظم، أو طموح سياسي عام. كان العرب شعراء خياليين، محاربين و تجّارا. لم يكونوا سياسيين، و لم يجدوا في دينهم قوّة تثبّتهم أو توحّدهم. كانوا على نظام منحط من الشرك. و بعد مائة سنة، حمل هؤلاء المتوحّشون الخاملون لأنفسهم قوّة عالمية عظيمة، ففتحوا سورية و مصر، دوّخوا و قلبوا فارس، ملكوا تركستان الغربية و جزءا من بنجاب، انتزعوا أفريقية من البيزنطيين و البربر و إسبانيا من القوط، هدّدوا فرنسا في الغرب و القسطنطينية في الشرق. مخرت أساطيلهم المصنوعة في الإسكندرية و موانئ سورية مياه البحر المتوسط، و اكتسحت الجزر اليونانية، و تحدّت القوّة البحرية للإمبراطورية البيزنطية، لم يقاومهم إلاّ الفرس و بربر جبال الأطلس. لقد شقّوا طريقهم بسهولة، حتى صعب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجوههم واقف، و يعرقل سيرهم في الفتح و الاستيلاء. لم يعد البحر المتوسط بحر الروم، بل أصبح حوضا عثمانيا لا سيطرة فيه لغير الترك، ووجدت الدول النّصرانية نفسها من أقصى أوروبا إلى أقصاها، مهدّدة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي." (2)

لقد أدرك المستشرقون أنّ سر قوّة المسلمين هو دينهم- الإسلام- و من هنا عملوا على تشكيل مجتمع الشرق من خلال إسقاط غربي، و ذلك بطمس هويته الإسلامية و تمييع شخصية المسلمين الفذّة، و جعلهم ينحرفون انحرافا شديدا عن حقيقة الإسلام، لا في السلوك وحده و لكن في التصوّر كذلك، مستندين في ذلك على ما يعرف بالغزو الفكري. و يقصد بالغزو الفكري، الوسائل غير العسكرية التي اتّخذها الغزو الصليبي. و الدّافع إلى استخدام الغزو الفكري في الحرب الصليبية المعاصرة، هو الحصيلة المرّة التي خرج بها الصليبيون من حروبهم الصليبية الأولى مع المسلمين في القرنين الخامس و السادس الهجريين، الحادي عشر و الثاني عشر الميلاديين، و التي انتهت بالضّربة السّاحقة و عدم تحقيق شيء، ممّا أخرج الصليبيون من بلادهم لتحقيقه، و بذلوا فيه الأموال و الدّماء و النّفوس.

جاء في بروتوكولات حكماء صهيون المنبثقة عن مؤتمر **بازال** بسويسرا عام 1897م:" علينا أن ننزع فكرة الدّين و وجود الله من عقول النّاس، لأنّ في الإيمان طمأنينة و استقرار للنّفوس التي نريدها معذّبة ملحدة مضطربة و مشتّتة. و إذا تمكّنا من محو فكرة الله و الدّين و الحلال و الحرام و البعث و الحساب، فلن يكون لدى النّاس بعد ذلك ما يخافونه، كما لن يكون لديهم حافز ديني يدفعهم للدفاع عن حقوقهم و أوطانهم، و سيقلعون عن بذل دمائهم و أموالهم و أرواحهم ليحصلوا على الاستقلال، أو

ليحافظوا على بلادهم نظيفة من الدنس و الاستعمار، و سيرضون بأي مستعمر، و سيفرّطون بأوطانهم لأنّهم سيكونون منكبّين على اللذّات و الجنس المستباح و على جمع المال الذي زيّناه في قلوبهم، حتى صار أكبر همّهم و غاية غاياتهم."(3) و في هذا الشّأن يقول اللّورد **كروزن**:" تصطدم أمواج التّبشير بسد منيع من صخور إسلامية صلدة، و هي تحاول عبثا تفتيتها و هدمها، ولكنّها لن تحقّق غايتها طالما بقي القرآن و بقيت الشعوب المسلمة منقادة لتعاليم هذا الكتاب، و إذا اتّحد المسلمون في إمبراطورية واحدة، فإنّهم سيكونون لعنة على الغرب." (4) و لقد نجح الاستشراق (5) إلى حد ما في مهمّته. إذ أنّ أوّل ما نلاحظه حين ننظر إلى القرنين الأخيرين و القرن الأخير خاصّة، هو الغموض المحيط بحقيقة الإسلام في نفوس المسلمين و البعد المتزايد عن هذه الحقيقة في الحياة الواقعية، سواء كان ذلك على مستوى التصوّر أو السلوك.

و الجدير بالذّكر أنّ ذلك لم يأت من فراغ، بل من جهد جهيد و تخطيط حثيث على جميع الأصعدة. ففي مؤتمر المبشّرين الذي عقد بالقاهرة عام 1906م، وقف الخطباء يقولون:" لقد فشلنا، فقد فتحنا المستشفيات و الملاجئ، و أعطينا الأموال و قدّمنا الخدمات، ثم لا يدخل في النّصرانية بعد ذلك إلاّ طفل صغير خطفناه من أهله قبل أن يعرف عقيدة أهله، أو رجل كبير جاء إلينا من أجل المال و لا نضمن عقيدته مع ذلك. فقام الأب و القس **صموئيل زويمر** (6) مقرّر المؤتمر يرد عليهم:" لقد استمعت إلى إخواني الخطباء، و لست موافقا على ما يقولون. فليست مهمتنا هي تنصير المسلمين، فهذا شرف ليسوا جديرين به، ولكن مهمّتنا هي صرف المسلمين عن التمسّك بالإسلام، و في ذلك نجحنا نجاحا باهرا بفضل مدارسنا التّبشيرية، و السياسة التّعليمية التي وضعناها للبلاد الإسلامية." (7)

و تلك أقوال صريحة لا تحتاج إلى تعليق. فالمطلوب هو صرف المسلمين عن دينهم و عن قرآنهم، و ليكونوا بعد ذلك ما يكونون. فإذا عجزوا عن تنصيرهم كما كانوا يشتهون و يخطّطون في البدء، فينبغي على الأقل أن ينتزعوا من قلوبهم ذلك الشيء المرهوب. و يعرف الذين يعيشون في أوروبا من المسلمين، كم يثيرهم منظر الفتاة المحجّبة إلى حد لا يستطيعون إخفاءه.

و لعلَ أخطر صور الغزو الفكري التي عمل عليها الكثير من المستشرقين، ما تعلَق منها بالمعتقد و الدَين. إذ يعتبر العالم الاسكتلندي السير **جيمس فريزر**، مؤلَف كتاب"**الغصن الذهبي**"، و الذي عاش ما بين عامي 1854 و 1941م، أحد المسؤولين الرئيسيين عن فكرة تطوَر الدَين خلال التَاريخ، و فكرة تقسيم التَاريخ البشري إلى ثلاث مراحل. مرحلة السَحر، مرحلة الدَين و مرحلة العلم. كل مرحلة تلغي ما قبلها. فالدَين ألغى السَحر، و العلم يلغي الدَين. كان **فريزر** يبحث في علم السلالات البشرية، و درس أحوال القبائل المتأخَرة في أفريقيا و آسيا دراسة دقيقة مبنية على المشاهدة و الملاحظة. و دوَن مشاهداته و ملاحظاته مشفوعة باستنتاجاته التي توصَل من خلالها إلى فكرة تطوَر الدَين و فكرة انتقال البشرية من مرحلة السَحر إلى مرحلة التديَن إلى مرحلة العلم، و هي المحطَة التي تلغي ما قبلها من خرافات. أمَا فكرة الأطوار الثلاثة التي مرَت بها البشرية فتقول إنَ الدَين، بأطواره المتعدَدة، لم يكن أوَل شيء عاشت به البشرية أو عاشت في ظلَه. إنَما كان الذي يسيطر على حياة النَاس هو السحر، الذي يفترض اختصاص أشخاص معيَنين بقوى خارقة يستطيعون بها الإحياء و الإماتة، و الضَر و النَفع، و الإصابة بالأمراض و الشفاء منها، و التَأثير في قوى الطبيعة، فترسل الرَيح أو تنزل المطر أو تفتح السبل أمام النَاس أو تغلقها. و من ثمَ يتوجَه إليهم النَاس بالخوف و الرَهبة والتطلَع و الرجاء، و يكون لهم على النَاس سلطان كبير. ثم ينتهي هذا الطور لسبب ما، و تبدأ مرحلة التديَن، فتتحوَل الطقوس الخاصَة بالسَحر إلى طقوس تعبَدية، تقدَم للإله أو الآلهة المعبودة و تكون المعبودات على هذا التوالي. الأب، فالطوطم، فقوى الطبيعة، فالأفلاك، فالأصنام، فالإله الذي في السماء الذي لا تدركه الأبصار. و تظل البشرية في هذا الطَور المتَسم بالجهل و بالعجز عن السيطرة على الطبيعة، إلى أن يتقدَم العلم فيزيح الجهل، و يتمكَن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، فيزول الباعث على التديَن، و يصبح العلم هو الذي يقود الحياة بدلا من الدَين. لقد افترض **فريزر** أنَ ما يراه من أحوال القبائل البدائية يمثَل طورا من أطوار البشرية، عاشته البشرية كلَها في وقت من الأوقات، ثمَ تحوَلت عنه المجتمعات التي ارتقت، بينما بقيت المجتمعات البدائية على الحال التي كانت عليها البشرية كلَها في وقت من الأوقات. كما افترض البعض مثل **لامارك** و **داروين**، أنَ هناك خطَا تطوَريا صاعدا أبدا يكون كل جديد فيه أرقى ممَا قبله، و كل قديم أقلَ رقيا ممَا بعده. و كلا الفرضيتين لا يوجد دليل علمي على صحتها.

فلو أنَ دارسا أنتروبولوجيا درس ظاهرة عبادة الأصنام في الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول– صلى الله عليه و سلم – و قرَر بمنطق **فريزر**، أنَ هذه المنطقة لا يمكن أن تكون قد عرفت التَوحيد قبل البعثة النَبوية، لأنَ التَوحيد يأتي في سلَم التطوَر بعد عبادة الأصنام و لا يأتي قبله. فهل يكون تقريره هذا صحيحا ؟ **و** لو أنَ مؤرَخا أو أنتروبولوجيا قال– على مذهب فريزر– إنَ وجود ظاهرة قوم لوط و ما كانوا عليه من الشذوذ، معناه أنَ البشرية كلَها قد مرَت بهذه الظاهرة في وقت من الأوقات، و أنَها طور من الأطوار التي تمرَ بها البشرية في مسيرتها التَاريخية. و أنَ حدوث هذه الظاهرة في قوم لوط، بعد إذ لم تكن موجودة فيهم هو تطوَر إلى أعلى، حسب سنَة التطوَر التي تجعل كل جديد أعلى و أرقى من كل قديم، و كل قديم أدنى في سلَم الرَقي من كل جديد. فهل يكون لكلامه هذا أي وزن على الإطلاق ؟

و هذا يقدح في مصداقية القضية الكبرى التي ركَز عليها **فريزر** تركيزا كبيرا. و هي أنَ الدَين كلَه صناعة بشرية بحتة، و أنَ ما نسميه الديانات السماوية إن هو إلاَ تطوَر طرأ على تلك الصناعة البشرية حين وصلت البشرية حدَا معيَنا من الرقي الفكري. و أنَ الدَين كلَه بجميع أطواره هو في نهاية المطاف طور من أطوار البشرية، مرَت به في وقت من الأوقات، ثمَ أخلى مكانه إلى غير رجعة للعلم الذي هو الوريث الشرعي المسيطر على آخر الزمان. و لا شك أنَ **فريزر** لم يكن وحده في هذا الميدان، ففكرة التطوَر في كل شيء كان يحمل لواءها **داروين**، و فكرة الانتقال من طور إلى طور في قضية الدَين، التي تنتهي بإلغائه، اشترك فيها اليهود الثلاثة: **ماركس**، **فرويد** و **دوركايم**، كلَ بطريقته الخاصَة.

أولا: تشارلز داروين و نظرية التطور.

ولد **داروين** في إنكلترا عام 1809م، و توفي عام 1883م، درس العلوم الحيوية و اللاَهوت، و عمل في مجال البحث عن أصل الأنواع و عن بداية نشوء الحياة على سطح الأرض، معتمدا في دراسته على المتحاثَات المدفونة في باطن الأرض. ليس دارون يهوديا، فقد ولد لأبوين مسيحيين في بريطانيا، و لكن اليهود استغلوا نظريته على نطاق واسع و عملوا على نشرها في الأرض لما رأوه من الاستفادة بها في تحطيم عقائد الأمميَين.

لقد ورد في بروتوكولات حكماء صهيون في هذا الشَأن:" لا تظنوا معشر اليهود أنَ تصريحاتنا جوفاء، و اعلموا أنَنا كنَا وراء ذيوع و انتشار و نجاح نظريات و فكر داروين و ماركس و نيتشيه. و أنَه نحن من خطَط لهذا كلَه، و نحن من حوَر هذه النَظريات و جعلها تؤيَد اللاَأخلاقية و الانحلال و تبدو منسجمة معها، و نحن من جعل نظريات داروين تشوَه الحقائق و العلوم و البديهيات، و نحن من جعلها تدرَس في المدارس و في كليات العلوم، و نحن من جعل داروين مفكَرا و محرَرا لفكر الإنسان، و نحن من جعل الصحف تقف بجانب نظرياته و تؤيَده، و نحن الذين جنَدنا وسائل الإعلام في العالم لمناهضة الكنائس لتعدل عن عدائها و تشهيرها بداروين، ووضعنا حدَا لمناهضتها لنظرياته و أفكاره الملحدة." (8)

و ينبغي أن نقول أنَ عالما سابقا هو **لامارك**، كان قد قال شيئا قريبا ممَا قاله داروين، و لكن اليهود لم يستطيعوا استغلال نظريته لتقويض عقائد الأمميين كما فعلوا بنظرية داروين، لأنَ الحدث العظيم الذي رجَ المجتمع الأوربي كلَه، و هو الثورة الفرنسية، لم يكن قد وقع بعد، و كان المجتمع على كل ما يحمل من الفساد و الظلم، ما يزال متماسكا، بالصورة التي لا تدع لليهود فرصة الدخول، ولكن الرجَة التي أحدثتها الثورة الفرنسية و التي اشتركوا هم في توجيهها وجهة معيَنة، هي التي قرَبت الهدف و أحدثت الثغرات التي يمكن أن ينفذوا منها. فلمَا قام داروين، تلقَفوه و اتَخذوه معولا هائلا لتحطيم كل القيم في حياة البشرية. ففي عام 1859م، و في خضم تيارات القرن التاسع عشر الفكرية، ظهرت نظرية أصل الأنواع و النَشوء الذاتي لداروين، يقول فيها:" إنَ ذرَات الهيدروجين التي انتشرت في الفضاء الفسيح المترامي الأطراف إثر الانفجار الكبير الذي حدث قبل (12–15) بليون سنة، راحت تتحدَ ببعضها بعضا بفعل الطاقة الهيدروجينية الهائلة التي انطلقت في الفضاء، فتشكَل من هذا الاتَحاد عناصر جديدة مغايرة لصفات الهيدروجين، ثم اتَحدت هذه العناصر ببعضها، وامتزجت بمياه الأمطار و بالتربة، فتشكَل منها بطريق المصادفة مركَب كيميائي عضوي بسيط ذو نشاط حيوي ضعيف، ثم راح هذا المركَب يتطوَر فأنتج الجراثيم و الفيروسات و الطحالب و الفطريات. و باتَحاد هذه الكائنات الدنيا وحيدة الخلية بعضها مع بعض، نجم عنها كتلة خلوية حيَة متناهية في الصَغر. لقد تطوَرت هذه الكتلة عبر ملايين السنين فأعطت جميع الحيوانات التي تدب الآن على سطح الأرض، و التي منها القردة

التي ارتقت أعلى درجات التطوّر والنَمو والاصطفاء الطبيعي، فأنتجت الإنسان دون تدخّل يد الله و قدرته و إبداعه في هذا النَشوء الذاتي و التطوّر الذي وصفه بأنَه عشوائي." (9) لقد حاولت نظرية داروين البرهنة على أنَ العمليات التي تقوم عليها حياة الإنسان و الحيوان، أساسها التغيّر و إنتاج أشكال جديدة للحياة، يكون بعضها أحسن و أفضل و أكثر ملاءمة للبقاء على قيد الحياة تحت ظروف بيئية خاصة، تجعلها أكثر تفوّقا و قوّة من غيرها، ممَا يؤدّي إلى أن تبقي نفسها و تستمر مع الأجيال القادمة. أمّا الأشكال التي تتّخذ سمات غير ملائمة للبقاء مدّة أطول، فإنّها تكون أقل من غيرها استعدادا للبقاء على قيد الحياة، و أقل قوّة على البقاء عبر الأجيال القادمة. فالسمات غير الملائمة للبيئة و للحياة قد تؤدّي إلى موت هذه الكائنات المبكّر أو تعوق الإنجاب و تكوين نسل و أجيال جديدة. و من ثمّ يكون البقاء و الاستمرار فقط للكائن الحي المزوّد بالسمات التي تجعله أصلح من غيره على البقاء و الاستمرار. و تلك هي النّظرية المشهورة لدارون و التي تعرف باسم "البقاء للأصلح." (10) و لكي يتقبّل النّاس نظرياته، أعطاها اسم التطوّر الذي يعني الرقي التدريجي لوحيد الخلية حتى أصبح إنسانا. لقد أثّرت نظرية داروين في جميع المجالات العلمية، حيث تبنّت هذه العلوم وجهات نظر جديدة و نشأت نظريات تطوّرية في جميع المجالات. و بالتّالي فإنَ أنصار هذه المدرسة يرون أنَ جميع المجتمعات البشرية نظمها الاجتماعية تتغيّر. و هي في تغيّرها تمر بمراحل تطوّرية معيّنة، كل مرحلة منها تمثّل انتقال المجتمع من حالة أقلّ رقيا إلى حالة أكثر رقيا. لأنَ جميع المجتمعات تهدف من تغيّرها و تبدّلها التقدّم و الرّقي. و المراحل التي يمر بها أي نظام من الأنظمة الاجتماعية، في أي مجتمع، هي المراحل نفسها التي يمر بها أي مجتمع آخر، فكل نظام بما في ذلك نظام الدين، يتطوّر داخل مراحل معيّنة، يتعيّن عليه أن يمر بها مهما كانت الظروف، لأنَ تلك المراحل عالمية، أي يمر بها كل مجتمع في العالم في خطوط مستقيمة، و في أشكال تحدث بلا تخلّف في كل مجتمع من المجتمعات. و لقد تأثّرت المقاربات السوسيولوجية لقضية الدّين، تأثّرا كبيرا بالآراء التي طرحها ثلاثة من كبار المنظّرين اليهود، **ماركس، فرويد** و **دوركايم**، و التي شكّلت الفكر الأوروبي الحديث، و كل منهم قام بدوره في تحطيم الدين و الأخلاق و التّقاليد. و كل منهم بنى أفكاره "العلمية" على أساس النّظرية الداروينية. و كل منهم اعتقد أنَ الدّين يمثّل واقعا موهوما و مضلّلا، رغم أنَ له تأثيرا بالغ الأهمية على حياة المجتمعات. و لم يكن أي من هؤلاء الثلاثة متديّنا، كما أنّهم تكهّنوا بانحسار أهمية الدّين و آثاره في المجتمعات الحديثة.

فأمَا ماركس فقد أنشأ نظرية اقتصادية أو قل فلسفة مادية كاملة، بناها على فكرة التطوَر من جهة و فكرة حيوانية الإنسان من جهة أخرى. و أما فرويد فقد أنشأ نظرية نفسية لتفسير تركيب النفس الإنسانية و نشاطاتها، بناها على فكرة حيوانية الإنسان . و أما دوركايم فقد أنشأ نظرية اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان و غلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة، و على انعدام الثبات في القيم الاجتماعية من جهة أخرى.

ثانيا:كارل ماركس و الدين:

ماركس أبو الشيوعية و المادية الجدلية و التَفسير المادي للتَاريخ، و هو يهودي ألماني، ولد عام1818م و مات عام1883م. أخذ ماركس جوهر النظرية الداروينية و أنشأ على أساسه نظرية اقتصادية و تفسيرا للحياة البشرية، يحصر الإنسان في عالم المادة و التطوَر المادي و يجعل قوانين المادة منطبقة على عالم البشر. كما يجعل أمور الحياة كلَها من عقائد و مشاعر و أفكار و أنماط سلوكية و منظَمات و مؤسَسات وغيرها، تبعا للتطوَر الاقتصادي و للأوضاع المادية التي يعيش فيها الإنسان و مجرد انعكاس لها، و لا دور للإنسان فيها، لأنَها حتميات. و لقد قسَم ماركس الحياة البشرية بمقتضى هذا التصوَر إلى خمس مراحل حتمية هي: الشيوعية الأولى و الرَق و الإقطاع و الرأسمالية و الشيوعية الثانية و الأخيرة. و جعل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتميا من جهة، و مردودا إلى أسباب مادية و اقتصادية من جهة أخرى. و يركَز ماركس على الانتقال من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية، لكونه الطور الذي كان قائما في وقته، و لكونه الطَور الذي وقع فيه التَغيير الضَخم الذي أحدثه اليهود في المجتمع الأوروبي فيقول:" إنَ سمات المجتمع الإقطاعي الزراعي هي:التديَن، ترابط الأسرة و سيطرة الرجل على الأسرة بكل أعضائها، الزوجة و الأولاد، و يرجع هذا كله إلى أسباب مادية و اقتصادية. فالفلاح، و هو المنتج الرئيسي في المجتمع الزراعي، يضع البذرة في الأرض، ثمَ لا يستطيع أن يسيطر عليها و لا أن يستعجلها عن موعدها، و لا أن يقيها من الآفات و التأثيرات الجوية المختلفة، و من ثمَ يفترض وجود قوَة غيبية يكل إليها هذا الأمر كله، الذي يعجز عن التحكَم فيه و السيطرة عليه، و يروح يترضَى هذه القوى الغيبية بالعبادات و النَسك و القرابين، لكي ترضى عنه و تبارك زرعه، ولكي

يتَقي غضبها عليه و انتقامها منه، و من ثمَ يكون التديَن قويًا، و يكون سمة بارزة للمجتمع الزراعي. فإذا تحوَل النَاس إلى المجتمع الصناعي المتطوَر تغيَر الأمر بالكلية. فالعامل هنا غير محتاج لافتراض القوَة الغيبية التي كان يلجأ إليها العامل الزراعي، لأنَه يتولَى عملية الإنتاج بنفسه. فهو الذي يعالج المادة الخامة و يشكَلها كما يريد، و من ثمَ يقل التديَن إلى أقصى حد في المجتمع الصناعي. فالتديَن أمر طبيعي في المجتمع الزراعي، لا يعيبه أحد و لا يستغربه أحد. و لكنَه علامة مرضية في المجتمع الصناعي لا ينبغي أن توجد، و إن وجدت فلا بدَ أن تحارب، لأنَها استبقاء لانعكاسات طور لم يعد قائما، و من ثمَ فلا بدَ من إزالتها. فإذا جاءت الشيوعية، و هي المرحلة الحتمية الأخيرة في حياة البشرية، تلغي الملكية الفردية إلغاء كاملا، و تصبح الدولة هي المالك الوحيد. و يلغى الدَين إلغاء كاملا، و يقضى على البقية الضعيفة الباقية منه في المجتمع الرأسمالي، لأنَ مهمَته التي يقوم بها هناك، و هي تخدير الكادحين ليرضوا بالظلم الواقع عليهم، تنتهي في المجتمع الشيوعي الملائكي الخالي من الظَلم، فلا يعود للدَين حاجة البتَة. و هنا تصل البشرية إلى قمَة التطوَر." (11) و أعلن **ماركس** في إحدى عباراته الشهيرة أنَ الدَين هو"أفيون الشعوب". فالدَين يرجئ السعادة و الجزاء إلى الحياة الأخرى، و يدعو النَاس إلى القناعة و الرَضا بأوضاعهم في هذه الحياة. و يؤدَي ذلك إلى صرف الانتباه عن المظالم ووجوه التفاوت و اللامساواة في العالم، وإلهاء النَاس بما يمكن أن يكون من نصيبهم في عالم الآخرة. و جاء في المؤتمر الدولي السادس للشيوعيين الذي انعقد عام 1928م ما يلي:" الدين أفيون الشعوب، و الحرب ضدَه هدف أساسي من أهداف ثورتنا الثقافية. علينا أن نغذَي هذه الحرب، و أن نستمر عليها بإصرار و عناد كبيرين." (12) و تجدر الإشارة إلى أنَ **ماركس**، على الرَغم من الأثر الكبير الذي تركه في هذا الميدان، لم يدرس الدَين بحدَ ذاته بصورة تفصيلية، بل استقى أكثر أفكاره حول هذا الموضوع من كتابات عدد من الفلاسفة و المفكرين في القرن التاسع عشر. و كان من هؤلاء **لودفيغ فيورباخ**، الذي وضع كتابه المسمى " **جوهر المسيحية** " (1957)، و طبع للمرة الأولى عام1841م.

و يتكوَن الدَين في نظر **فيورباخ** من أفكار و قيم أنتجها البشر خلال تطوَرهم الثقافي، و لكنَهم أسبغوها على قوى سماوية و إلهية. و نظرا لأنَ البشر لا يعرفون مصيرهم تمام المعرفة، فإنَهم ينسبون إلى أنشطة الآلهة ما سبق لهم أن أنتجوه في مجتمعاتهم من قيم و معايير. من هنا فإنَ قصة الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى هي مجرد نسخة أسطورية لأصول المبادئ الأخلاقية التي كانت في حياة

اليهود القدماء ثم المسيحيين. و يضيف **فيورباخ** أنّه طالما ظل البشر عاجزين عن فهم الرموز الدينية التي ابتدعوها، فإنّهم سيظلّون أسرى لقوى التّاريخ التي لا يستطيعون التحكّم فيها. (13)

ثالثا: فرويد و الدين:

مهّدت نظريات **داروين** لميلاد نظرية **فرويد** في التّحليل النّفسي، التي دعت إلى الإباحية و التحرّر من الدّين. و لا يقل **فرويد** عبقرية عن **ماركس** و لا خطورة في أداء الدور المطلوب. فهو يهودي نمساوي، ولد عام 1857م و عمّر طويلا حتى مات في عام 1938م، و ألّف نحو ثلاثين كتابا في الدراسات النّفسية من أشهرها:" **الذات و الذات السفلى**"، " **الطوطم و المحرمات** "، و كلّها تدور- من زوايا مختلفة – حول موضوع واحد مكرّر فيها جميعا، هو التّفسير الجنسي للسلوك البشري. كان" **فرويد** " يعمل طبيبا ثمّ تخصّص في معالجة الأمراض العصبية و النفسية، ثم استنبط من دراساته تصوّرا خاصا للنّفس البشرية و تركيبها و تفسيرا لنشاطاتها المختلفة . و من خلال كتابه " **الطوطم و المحرمات** " تحدّث **فرويد** عن الدّين و الأخلاق و التّقاليد، فقال:" لقد شعر الأبناء برغبة جنسية تجاه أمّهم الأولى- حواء- فوجدوا أباهم سدّا يحول بينها و بينهم، لذا قتلوه لتخلو لهم أمّهم. لقد كانت هذه أوّل جريمة ارتكبها الإنسان في هذا الوجود، و لم يكن قتل هابيل لأخيه قابيل كما ورد في الرسالات السماوية. و بعد أنّ فرّط الأولاد بأبيهم آدم – حسب زعمه- تألّموا و حزنوا على قتله و ندموا، لذا راحوا يحيون ذكراه حتّى قدّسوه و من ثمّ عبدوه. فالعبادة في رأي **فرويد** كانت للأب و ليست لله، و هذه كانت بداية فكرة ظهور الدّين. و إكراما و تقديسا لمعبودهم، أعرض الأبناء عن مواقعة زوجته (أمّهم)، و بذلك نشأت فكرة تحريم الأم، التي كانت أوّل تحريم جنسي. و لقد تمخّض عن حادثة قتل الأولاد لأبيهم آدم، تشريعات أخرى غير تحريم مواقعة أمّهم (المحارم)، شكّلت في مجملها أساس الديانات التي تتالت. أي أنّ الديانات و الشرائع كلّها كانت وضعية و أنّها ليست من عند الله تعالى." (14)

و يعلّل **فرويد** سنده في هذه القصة، التي يبنى عليها تفسيرا كاملا للحياة البشرية بأديانها و حضاراتها من أوّل التّاريخ إلى آخر التّاريخ، بقول **داروين**:" إنّه في عالم البقر تتّجه الثيران الشابة إلى الأم لمواقعتها، فتدور بينهم معركة رهيبة، يفوز فيها أقوى الثيران و أصلبهم عودا، فيستولي وحده على الأم و ينحدر الباقون." (15)

فحسب **فرويد** باختصار، و بصورة " علمية "، فالدَين نابع من الجنس، من ذات العقدة التي سماها "عقدة أوديب"، و يقابلها "عقدة ألكترا" عند البنت، و هي العقدة النَاشئة من الكبت الجنسي لشهوة الصبي الجنسية نحو أمَه، و شهوة البنت الجنسية نحو أبيها. كما نرى أنَه بتعديل بسيط، أو بالأحرى بتحريف بسيط، تنقل القصة من عالم البقر إلى عالم البشر، و يقوم عليها تفسير شامل للحياة البشرية. فالإنسان حيوان كالبقر أو كباقي الحيوانات التي تدب على سطح الأرض، قد ظهر إلى الوجود نتيجة النَشوء الذَاتي و من ثمَ التطوَر فاصطفاء الطبيعة للأفضل فانقراض ما دون ذلك. و خلاصة هذا التفسير أنَ **فرويد** يحاول نسف قدسية الدَين، و جحد وجود الله العلي القدير، و إنكار فكرة التَنزيل، و إلغاء العلاقة بين الله و عباده، لأنَهَا تسمو بالروح البشرية و تجعلها تشرق بنور الإيمان.

رابعا: دوركايم و الدين.

إميل دوركايم يهودي فرنسي ولد عام 1858م و مات 1917م، و تخصَص في علم الاجتماع و له فيه كتب من أشهرها " **مقدمة في علم الاجتماع** ". أخذ **دوركايم** عن داروين التَفسير الحيواني للإنسان و مدَده ليغطَي ميدان العلاقات الاجتماعية. و خلافا لكارل ماركس، لا يربط دوركايم الدَين بالتفاوت الاجتماعي أو السَلطة، بل يدرس علاقته بطبيعة المؤسَسات المجتمعية. و لذا أمضى دوركايم جانبا كبيرا من جهده البحثي في دراسة الدَين مع تركيز عمله على دراسة الطوطمية التي يمارسها سكَان أستراليا الأصليون، باعتبارها تمثَل الأشكال الأولية للدَين. فالطوطم، هو حيوان أو نبات، يجسَد قيمة رمزية للجماعة و يمثَل القيم المحورية في حياتها، ويحظى بالإجلال و الاحترام، لأنَ له طابعا مقدَسا تتبلور حوله منظومة من الأنشطة الطقوسية المتنوَعة. و يمكن اعتبار مؤلفه المسمى" **الأشكال الأولية للحياة الدينية** " الذي نشر عام 1912 م، أبرز الأعمال المؤثَرة في علم اجتماع الدَين. كان **دوركايم** يعتقد أنَ تأثير الدَين سينحسر مع تطوَر المجتمعات الحديثة، و سيحل مكانه التَفكير العلمي. و من هنا يشترك دوركايم مع ماركس في الرأي بأنَ الدَين التَقليدي، أي الإيمان بآلهة أو قوى علوية، هو على وشك الاختفاء.

و يستعرض المفكّر **محمد قطب** أفكار دوركايم بقوله:" و خلاصة أفكاره أنَ الكائن البشري محكوم **بنزعة القطيع** التي تحكم عالم الحيوان و تسيّره دون وعي منه و لا إرادة. و لم يشأ دوركايم أن يستخدم المصطلح الحيواني مباشرة " **نزعة القطيع** " و إنَما سمَاها" **العقل الجمعي**"، و نسب إليها في عالم الإنسان كل ما ينسب في عالم الحيوان إلى نزعة القطيع. و يعرف العقل الجمعي بأنَه شيء كائن خارج عقول الأفراد ليس هو مجموع عقولهم، و لا يشترط أن يكون موافقا لعقل أحد منهم و لا لمزاجه الخاص (عقل من هو إذن ؟) و أنَه يؤثَر في عقول جميع الأفراد من خارج كيانهم و لا يملكون إلاَ أن يطيعوه و لو على غير إرادة منهم. كما إنَه دائـــم التغيَر، يحل اليوم ما حرَمه الأمس، و يحرَم غدا ما أحلَه اليوم، بلا ضابط و لا منطق معقول. و من ثمَ لا يمكن تصوَر ثبات شيء من القيم على الإطلاق، لا الدَين و لا الأخلاق و لا التقاليد. و إنَ النَظر إلى هذه الأمور على أنَها أمور قائمة بذاتها هو تفكير غير معقول. و لا يعتبر الدَين و الزواج و الأسرة أشياء من الفطرة، لأنَ التَاريخ يوقفنا على أنَ هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان. إنَ بعض كلام دوركايم عن العقل الجمعي معقول، و لكن الصورة التي يريد دوركايم أن يرسمها للبشرية مختلفة تماما. فهو يريد أن يلغي فيها شخصية الفرد إلغاء كاملا و يلغي إرادته، ليجعله يتقبَل ما يلقيه إليه "العقل الجمعي" من أوامر و توجيهات بلا وعي منه و لا إرادة. و يستمد دوركايم أمثلته و قواعده ممَتا قام به الغوغاء في الثورة الفرنسية من قتل و تحطيم و تخريب وقع من أناس عاديين لم يحدث منهم القتل و التَخريب من قبل، و لكنهم قاموا به في سرور بالغ بل في نشوة وحشية، و هم في وسط " المجموع".

و كثير من المفكرين لفتتهم هذه الظاهرة، و ردَوها إلى" **المشاركة الوجدانية** " أو إلى نزعة مكبوتة إلى التَخريب و التَحطيم ينفلت قيادها حين يوجَه الغوغاء إلى ذلك، فينطلقون– وقد انحلت العقدة– يفعلون ما يخطر على بالهم من وحي اللَحظة، متشجَعين على الشر بكونهم كثرة غالبة و الواقف في طريقهم قلة مغلوبة، بل ردَها بعضهم إلى" **نزعة القطيع** " مباشرة، على أساس أنَ هذا القطيع البشري في حالته الجنونية التي يكون عليها، بلا عقل و لا وعي، هو أشبه بالحيوان، تحرَكه بالفعل نوازع الحيوان، ما دام قد غاب عنه العقل الذي "يعقل" تصرَفاته أي يقيَدها.

و أيّا كان الرأي فقد نظر المفكرون إلى هذه المظاهر على أنّها حالة خاصّة تصيب الجماهير حين تجتمع في حالة غضب أو استثارة، ولكن دوركايم جعلها قاعدة الحياة البشرية كلها، و الأساس الذي تنبني عليه كل تصرفاتها." (16)

ممّا تقدّم تبيّن أنّ ما الدّين في نظر الآخر –كبار منظّري اليهود– إلاّ أفكار و قيم أنتجها البشر خلال تطوّرهم الثقافي. و أنّه مرحلة من مراحل التطوّر البشري، و أنّ تأثيره سينحسر مع تطوّر المجتمعات الحديثة، و سيحل مكانه التّفكير العلمي. كما أنّه يشكّل واقعا موهوما و مضلّلا، و يعتبر علامة مرضية في المجتمع الحديث المتطوّر، و محذّر للكادحين ليرضوا بالظلم الواقع عليهم، و لا يعدو الدّين أن يكون نابعا من الجنس، بحيث لا يختلف عالم الإنسان عن عالم البقر. فالكائن البشري محكوم بنزعة القطيع التي تحكم عالم الحيوان و تسيّره دون وعي منه و لا إرادة. و يقول دوركايم في إحدى عباراته المشهورة: " لقد ماتت الآلهة القديمة "، غير أنّه يعترف أنّ الدّين قد يستمر، و إن كان ذلك بأشكال بديلة أخرى. و ما زالت المجتمعات الحديثة تعتمد على الممارسات الطقوسية لتأكيد تماسكها الاجتماعي و قيمها الأساسية. لقد حاول الآخر أن يفصل بين نزعتين فطريتين سويتين متكاملتين – نزعة العلم و نزعة العبادة– و ينشئ بينهما عداوة لا وجود لها في أصل الفطرة، و صداما لا ينبغي أن يوجد في النّفس السوية، فتمزّق النّفس الواحدة و تثير في داخلها القلق و الاضطراب. لقد خلق الله الإنسان مفطورا على حب المعرفة كما خلقه مفطورا على العبادة. و في النّفس السوية تتجاور النّزعتان و تتكاملان بلا تصادم و لا تضاد. فالفطرة تتطلّع إلى ربّها لتعبده، و الفطرة تتطلّع إلى الكون من حولها تحب أن تتعرّف عليه، و أدواتها هي الحس و العقل.

﴿ **و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم و أشهدهم على أنفسهم، ألست بربّكم، قالوا بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين**﴾. (سورة الأعراف: الآية 172).

﴿ **و علّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**﴾. (سورة البقرة:الآية 31).

﴿ **اقرأ و ربك الأكرم، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾. (سورة العلق: الآية 3–5).

إنَ تعميم الحكم المستمد من حالة معيَنة على البشرية كلَها خطأ علمي لا يستند إلى دليل. و إنَ القول بأنَ خط التطوَر صاعدا أبدا، و أنَ البشرية لا تنتكس إلى حالات انحطاط و تدن بعد أن تكون قد ارتقت ، هو الآخر خطأ علمي لا يستند إلى دليل. و الواقع التَاريخي هو الحكم ضدَ هذا القول و ذلك. ثمَ إنَ وجود القبائل التي شاهدها **فريزر** في أفريقيا و آسيا على الحالة التي وجدها عليها لا يعطي دليلا قطعيا على أنَ البشرية الأولى كانت كلَها على تلك الصورة في وقت من الأوقات، فقد تكون الحالات التي رآها انحرافا عن الأصل الذي كانت عليه البشرية، حدث لأي سبب من الأسباب، كما حدث انحراف قوم لوط مع أنَ أسلافهم كانوا أسوياء. و على حد قول **الفاروق عمر** رضي الله عنه " **لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية.**" فمعرفة المسلمين بانحرافات "الآخر" تزيدهم معرفة بكمال الدَين المنزل من عند الله.

الهوامش:

1- للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية و النهاية، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث و الدراسات العربية و الإسلامية، دار هجر للطباعة و النشر و التوزيع و الإعلان، الجزء5، ص7 .

[2]- أبو الحسن علي الحسن الندوي، المد و الجزر في تاريخ الإسلام، دار القلم، دمشق، و الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى، 1998 م، ص 27.

[3]- محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 2010م، ص148.

[4]- محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، ص 72.

[5]- الاستشراق: تيار فكري اهتم بدراسة الإسلام و حضارته، و شريعته و آدابه، و لغته و ثقافته، و ثقافة متَبعيه و أسلوب معاشهم و تفكيرهم، و من ثم التَصدي له و الإساءة إليه. و قد بني الاستشراق على أنقاض الصليبيين المخذولين، و موَلته و رعته دولهم و حكوماتهم الحاقدة على الإسلام و المسلمين.

[6]– صموئيل زويمر: مستشرق أمريكي، أب، قس و مبشر بروتستانتي، كان له نشاط تبشيري واسع في البلاد الإسلاميـة، و أوصى قبل موته بأن يدفن في مقابر اليهود.

[7]– محمد قطب، واقعنا المعاصر، مكتبة رحاب، الجزائر، 1989م، ص197.

[8]– محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، ص189.

[9]– محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، ص50.

[10]– حسن شحاتة سعفان، دراسات في علم الإنسان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1973م، ص72.

[11]– محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ص102–103.

[12]– محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، ص60.

– أنتوني غيدنز، بمساعدة كارين بيردسال، ترجمة و تقديم: د. فايز الصياغ، علم الاجتماع، ط4، ص579.[13]

[14]– محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، ص115.

[15]– محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، ص116.

16– محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ص115–116، بتصرف.